بين مرآتين

بدرية أحمد حمدان

بدرية أحمد حمدان

عندما هممت بكتابة قصّتي في التّعليم، تداعت إلى خاطري صورتي وأنا أجلس على مقاعد الدّراسة -منذ سنين خلت- بين أيدي معلّمات فاضلات، في المدرسة كنت أنظر إليهنّ بمنتهى الإعجاب والإجلال، وفي البيت كنت كثيراً ما أقف أمام المرآة، أقلّد وقفتهنّ ومشيتهنّ وطريقة تعاملهنّ معنا، وأتخيل طالباتي أمامي، ينظرن إليّ بالإعجاب والإجلال عينه الذي أكنّه لمعلماتي، ربما منذ ذلك الوقت رسخت في أعماقي تلك الرّغبة في أن أصبح معلّمة ومربية أجيال، دون حتّى أن أدرك ذلك.

لن أنسى ما حييت معلّمة اللّغة العربيّة في المرحلة المتوسطة، كانت امرأة في بداية العقد الخامس من العمر، اتّسمت شخصيتها بالحزم، وربما ببعض الصّرامة، كانت تأخذ عملها على محمل الجدّ، وتولي اهتماماً بأدقّ التّفاصيل، أنا لا أدين لها بإتقان مهارات اللّغة العربيّة، والقدرة على كتابة النثر والشعر فحسب، وإنّما أدين لها بقدرتي على النطق الصحيح، وبجزء كبير من ثقتي بنفسي أيضاً. كنت حينها في الثانية عشرة من العمر، وكنت لم أتقن بعد لفظ حروف السّين والزّاي والصّاد بشكل سليم، وعلى الرغم من أن والدي، أمدّ الله في عمره، بذل مجهوداً كبيراً في محاولة تصحيح نطقي، فإنّني لم أستجب لمحاولاته، ربّما بسبب عدم شعوري بالحاجة الحقيقية لذلك، وبخاصّة أنّ كثيراً من معلّماتي الأخريات كنّ يشعرنني أن طريقتي في النّطق هي إحدى صفاتي المميّزة، وجزء محبّب من شخصيّتي. ولمّا كنت معروفةً بسرعتي في حفظ الشّعر، فقد كانت تتحداني باحتساب علامة الحفظ على عدد الحروف التي أنطقها بطريقة صحيحة، حتى أنني في إحدى المرات نسيت بيتاً من القصيدة لشدة ما ركّزت في نطق حروفها بالشكل السليم، ولكنها وضعت لي العلامة الكاملة، لأنني نطقت جميع الحروف كما يجب، وكان ذلك اليوم آخر عهدي باللغة. لن أنسى عندما قالت لوالدتي يوما –ولم أكن قد أنهيت المرحلة المتوسطة بعد- إنها لن تتفاجأ إذا سمعت اسمي بين أوائل المملكة في الثانوية العامة، وعلى الرغم من أن رؤيتها لم تتحقق، فإن كلماتها تلك تركت أثراً عميقاً في نفسي.

مضت السّنون وتبدّلت الرّغبات، ولكنّ بوصلة القدر أبت إلا أن تشير باتّجاه ذلك الحلم السّاذج الدّفين، غادرت مقاعد المدرسة، وتوجهت لدراسة العلوم الحياتيّة في الجامعة، لم يكن توجهي لدراسة هذا التّخصص بالذّات نابعاً من اختيار واعٍ وموضوعيّ، بقدر ما كان متماشياً مع التّقدير الّذي حصلت عليه في الثانويّة العامّة، ففي حين كنت موهوبة في الكتابة، وأكثر ميلاً لدراسة الآداب واللغات، لم أجد الجرأة الكافية لتغيير مجال تخصّصي، والالتحاق بتخصص يتطلب معدلاً أدنى من المعدل الذي يؤهلني التقدير الذي حصلت عليه حينها لدراسته، فأقنعت نفسي بأنّني أستطيع أن أنمي الجانب الأدبيّ من ميولي الشخصيّة بعيداً عن مجال الدّراسة، في حين أنّني لن أستطيع أن أنمّي الجانب العلمي إلا من خلال الدّراسة المتخصّصة، وبذلك أحقّق التّكامل الشّخصي الذي كنت أسعى إليه. لا أستطيع أن أقول اليوم إنّني نادمة على

قراري، ولكنّني لن أنكر أنّني شككت في صحته في مراحل عديدة من حياتي.

كنت أنوي أن أحصل على دبلوم عالٍ في علم المختبرات الطبيّة بعد إنهاء البكالوريوس، ولكن حيث أنّني ارتبطت واضطررت إلى مغادرة الأردن للعيش في فلسطين، فقد تخلّيت عن هذا المخطّط وتوجهت للعمل في سلك التّربية والتّعليم، حيث أصبحت معلّمةً لمبحث العلوم.

ومن جديد، وقفت أمام المرآة، هذه المرّة بخوف وقلق، وليس في غمرة حلم لطيف من أحلام اليقظة، وسألت نفسي: "أيّ نوع من المعلّمات أريد أن أكون؟ وأيّ نوع من الأجيال أريد أن أسهم في بنائه؟". لم تكن الإجابة ماثلة بين يديّ في ذلك الوقت، ولكنّ الّذي كان حاضراً في خاطري، كما هو في هذه اللحظة، صورة أولئك المعلّمات اللاتي أثّرن فيّ، وأسهمن في بناء شخصيّتي، وكنّ نماذج تقتدى بالنّسبة لي، فوعدتهنّ أمام نفسي، أو يمكنني القول: وعدت نفسي في حضرة غيابهنّ الماديّ وحضورهنّ المعنويّ، بألّا أدخر جهداً ولا همّةً كي أكون كما كنّ لي، وكما يحببن أن أكون، قدوةً ومربية، أمّاً ومعلّمة.

عندما خضت غمار التّعليم أدركت أنّ المهمّة أصعب ممّا ظننت، تفاوت أدائي من سنة إلى أخرى، اصطدمت بمعيقات، حققت نجاحات، تعثّرت وتطورت، أثّرت في طالباتي وتأثّرت بهنّ.

ترافقت السّنوات الأولى لعملي في التّعليم مع سنواتي الأولى في الأمومة، وكذلك مع أحداث الانتفاضة الثانية وما رافقها من إغلاق للطرق، حيث أصبح مجرّد الوصول إلى المدرسة والعودة إلى أطفالي بأمان تحدياً بحدّ ذاته، في هذه المرحلة تماماً شعرت أنني فقدت البوصلة، أصبحت أولويّتي الوحيدة وجلّ طاقتي تتركز في شؤون أسرتي ورعاية أطفالي، وأخذ التّعليم يصبح أكثر رتابة وأكثر وظيفيّة. وفي الوقت الذي كان فيه العالم يمشي بخطوات سريعة نحو تعلّم مختلف ومهاراتٍ جديدة وتقنيات أكثر تطوراً وتعقيداً، كنت أنا بعيدةً كل البعد عن هذه التّطورات، لكنني كنت أدرك أن ما نقوم به في مدارسنا أشبه ما يكون بحراثة البحر، كثير من الجهد وانعدامٌ للأثر.

وكم يؤسفني أن أقول إنّني مررت بمرحلة حيث كنت أشعر بالخجل من كوني معلّمة، حتى أنني عندما كنت ألتقي بطالباتي أو أمّهاتهنّ بعد سنوات من تركهنّ المدرسة، فيغمرنني بعبارات الثّناء والشّوق والمحبة، كنت أسأل نفسي: "هل أستحقّ هذا التّقدير حقاً؟ هل بذلت لهنّ ما في وسعي؟ هل كان ما في وسعي كافياً؟". وعلى الرّغم من أنّ هذه العلاقة الوجدانيّة مع "بناتي" كما اعتدت أن أسميهنّ، كانت هي دافعي الحقيقي ومعيني على الاستمرار في المهنة، فإنها كانت كثيراً ما تكون سبباً في شعوري بالتقصير تجاه من يكنون لي كل هذا الحبّ والاحترام.

استمرّ الوضع على هذا النّحو حتى خضت تجربة الالتحاق ببرنامج التّطوير المهني للمعلمين منذ بضع سنين، وأعتقد جازمةً أن هذه الخطوة كانت نقطة تحوّل كبير في نظرتي لمهنة التّعليم ولذاتي كمعلّمة وكإنسان، أثارت هذه التّجربة في ذهني عاصفة من التّساؤلات: "أين نحن؟ أين مناهجنا؟ أين مدارسنا؟ أين نظامنا التّعليمي كاملاً مما وصل إليه العالم؟ كم نحن بعيدون عن تحقيق مهارات العصر؟ لماذا لا نستطيع أن نحقّق أهدافنا مع طلّابنا؟". كانت الإجابة باختصار، أنّ ما نريد منهم أن يتعلّموه ليس هو ما يحتاجونه حقاً ولا ما يرغبون في تعلّمه، كما أنه لا يقدم لهم من خلال سياق مرتبطٍ بحياتهم.

في هذه المرحلة تماماً أدركت حاجتي الحقيقيّة للتّغيير ... نعم، لقد كانت حاجتي أنا قبل أن تكون حاجة طالباتي. كنت أتوق إلى نموذج مختلف، نموذج مؤثّر على المستوى الإنساني، ومرشد مهنيّ يمتلك المهارة والكفاءة والرّؤية الواضحة، وهناك وجدت ضالتي، نموذج للمعلّم الحقيقي، لا يتوانى عن منح الوقت والجهد لطلابه، لا يتوقف عن طرح الأسئلة عليهم وتحفيز تفكيرهم وإثارة دافعيتهم نحو البحث والغوص في عمق المفاهيم والظواهر، وعدم الاكتفاء بالفهم السطحي لها، لم يكن معلّماً تقليديّاً يقدّم الإجابات، بقدر ما كان يفتح الباب على مصراعيه لسيل متدفق من التساؤل، ويقود طلابه لاكتشاف ذواتهم واستثمار قدراتهم وتطويرها، معلّم دائم التّعلم، يعدّ طلّابه للمستقبل ويدفعهم لاكتساب مهارات عصرهم، معه استطعنا طرح همومنا والحديث بشفافية عن الصعوبات والتحديات التي تواجهنا مع طلابنا في جو آمن، دون أن نواجه بالتهمة الجاهزة "إنتو بدكمش تشتغلوا"، ودون أن ندفع قسراً لاستعراض نجاحات وهمية تجعل الآخرين يشعرون أنهم يصارعون الفشل وحدهم ... . نعم، هذا هو نموذجي، هذا هو المعلّم الذي أريده لأبنائي، هذا هو المعلّم الذي أريد أن أكونه ... ليست مهمّة سهلة، ولكن على الأقل لديَّ الآن هدف واضح أسعى إليه فيما تبقى لي من سنوات في التّعليم.

اليوم إذ أخطّ هذه الكلمات، لا أملك إلّا أن أنحني احتراما لكل من أثّر فيَّ، معلّماتي، أساتذتي، طالباتي، وأقول لهم جميعا: "ليست لكم مساحة بين هذه السّطور فحسب، إنما لكم مساحة في القلب وحظ من الروح، أعتذر لمن قصّرت في حقه يوماً، وأسأل الله أن يعينني على إكمال مهمّتي على الوجه الذي يرضيه ويرضيني".

مدرسة بنات رافات الثانوية